الفصل العشرون

قائد الفرقة الطيارة

وما دخلت الشيطانة الجميلة ومدت يدها للسلام على سكولوف حتى دوت هاتيك الانحاء بصوت مدفع بعيد أطلق طلقتين متواليتين فقالت الشيطانة : —

— هذا من اسكي زهرة ومنهُ يتحقق ان الفرقة الطيارة أصبحت قريبة منا

فاجابها البرنس ناظرًا الى ساعتهِ : —

— هكذا يظهر وهو مطابق للانباء التي بلغتني منذ بضعة ايام وحينئذٍ اخذت السيدة دشتون في حديث طويل تخلصت منهُ الى هذه الجملة : —

— حقًا ان هذه الانحاء موحشة جدًا خلوها من مظاهر المدينة ووسائط الحضارة . وعندي ان الوصول اليها أص — أص — أصعب من مقتل غودارد المسكين

وقد نطقت بهذه العبارة الاخيرة بلجلجة لا مزيد عليها كأنها تجهد قريحتها في استخدام تشبيهٍ مناسبٍ . فلما امتنعت انتفضت الشيطانة الجميلة من مماعها لكنها تغلبت على نفسها بجهد عنيفٍ لم يخفَ على البرنس سكولوف فقال : —

— يالها من مشابهة !

فقالت املي : —

— لاادري كيف خطر مقتلهُ على بالي في هذه الدقيقة ومن العجيب الغريب ان انسانًا نظيرهُ يخرب بناه رجائهِ بغتةً حين كان يرجي لهُ احسن مستقبل . وقد عرفتهُ جيدًا ولكن ما الفائدة من ذكرهِ امامكما وانتما تجهلانهِ وقلما تعرفان عنهُ

فكان الشيطانة الجلد واقدمت على السؤال بمزيد الاهتمام لكنها شعرت بطيشها وعدم تثبتها فتلافت امرها من نصف كلامها الآتي : —

— تعرفينهُ ؟ ما اسمهُ ؟

— او بين غودارد . سوف اطلعكِ على قصتهِ بالتفصيل حين ازوركِ في غرفتك الخاصة

فقال سكولوف : —

— اراكِ معتمة لهذا الرجل

— نعم . لان من يخرب بناه مستقبلهِ في الدقيقة التي ابتدأت فيها حياة تقدمهِ وترقيهِ

يكون سببهُ اعتياديًّا — امرأة . ولا بُدَّ ان تكون قصتهُ ذات شأن

— اذًا رأيكِ انهُ حينما يسقط رجل في مهاوي التلف يكون سبب سقوطهِ دائمًا امرأة

— ليس كما قدمت واستنتجت فقد تسوء حال الانسان لاسبابٍ كثيرة ولكن حينما يسوق الخراب الى نفسهِ يتوقع الآخرون ان يكون السبب امرأة

— لنرجئ هذا البحث الى وقتٍ آخر فقد حان قدوم زائري فسألتهُ املي : —

— من هما ؟

— سوف تعرفينهما

— اذًا انت تُعدُّ لي سببًا كبيرًا للدهشة والابتهاج ولهذا يترتب عليَّ عدم اللجاج في السؤال . فالى الملتقى .

وبعد خروجها سألتهُ الشيطانة : —

— من هما زائراك فلم يخبرني شيئًا عنهما

— لانهُ لم يكن لي شيءٌ اقولهُ عنهما حتى هذا الصباح . فهما المستر سافيل وقرينتهُ ولسوف تُسرّين كثيرًا برؤيتهما لانهما اهل ادبٍ شائق ولطفٍ رائع . وقد بلغا هذه التخوم منذ يومين وارسلا يطلبان مني جواز المرور . وفي الليل الماضي وصلا اسكي زهره واليوم يقدمان علينا . على ان اقتراب الفرقة الطيارة جعلني في شغل شاغل من نحوهما

— قل لي لماذا دعوت تلك المرأة — السيدة دشتون — من نيس الى هنا ؟

— لانني ظننت انك تسرّين بالاجتماع بها

— بل لانك توقعت انها تفيدك شيئًا عني !

— اذًا لم سألتني ؟

— لارى هل تخلص في الجواب فاتحقق صدقك وامانتك . وليس يخافِ عليك اني اكره الكذب وابغض مايولدهُ الجبن والخوف . فاسألني عما تروم معرفتهُ فهل نقصتني قطُّ شجاعة في الكلام

— اراكِ مغتاظة جدًّا ايها البارونة . ولقد طالما كنت صبورًا عليك غير جازعٍ

فادركت الشيطانة انها جرحتهُ بالكلام واسرعت في الاعتذار فقالت : —

— عفوًا ياسيدي البرنس ان ضعفي يوشك بعض الاحيان ان ينسيني مالك عليَّ من الجميل لاني لست سوى امرأةٍ

— قد كنت ولا ازال ارجو ان أُنسيك اسباب ضعفك فالى كم يبقى هذا الرجاء باطلاً ؟

او لا تطرحين عنك الاهتمام بما اراكِ وقفتِ حياتك على مصارعتهِ من الخطوب وتعيرين جانب الالتفات الى ضياء السعادة الساطع الاشراق ولكِ ان تملكي ناصية التمتع بهِ منذ الان بحق المحبة الذي لا ينازعكِ فيهِ احد ؟

— اظنك تذكر ان اتفاقنا كان واضح المبدإ ولا تحتاج الى التذكير . وعند ما وطنتُ نفسي على القيام بخدمتك علمتُ اني عرّضت نفسي لامر خطرٍ وقد بعتكَ تلك الحياة — اذا مسّت الحاجة الى الموت لكني لم أبعك نفسي

— ولكنكِ تهيبنهاهيةً . ان الحصول على الشفقة ام المحبة يتطلّب قرع باب الجودة — كاريتا (١) ما احلاها اسماً ! ولهذا اودُّ أن ادعوك بهِ

— هو اسم امي ولذلك تجدهُ مقدساً عندي ولكن دعنا من هذا ! ولا حاجة بنا الى التكلّم بالغاز . انك تعرف جانباً من دخيلة امري وتروم ان تعرف شيئاً اكثر . ولكن اقول لك صريحاً انك لست مستطيعاً ان تعرف عني شيئاً بواسطة تلك المرأة . ولك الآن احسن فرصةٍ تنتهزها . إسألني ما شئت ولي ان اكتم عنك ما أريد لكني لا اكذب

— هل يهمكِ امر الرجل غودارد ؟

— الى الغاية

— لم اسمعكِ قطُّ تذكرينهُ

— كل ما هو في سويداء الفؤاد بعيدٌ جدًّا عن الشفتين

— وهل تعلمين ما المَّ بهِ ؟

— اعلم انهُ مات ان صدقت تلك المرأة . وخيرٌ لك ولمصلحتك ان يكون موضوع اهتمامي في راحتهِ الابدية . فربما تجدني طوع بنانك وانما دعني اتولّى جهة غلطاتي الفادحة واتعرّض لشق سمومها اللافحة . وقد قلتُ لك اني أُطلعك على انباء جديدة . فعندي الآن نبأٌ يقصّر عن وصفِ غرابتهِ الكلام — نبأٌ حذقٍ وبسالةٍ وإقدام

— ماهو

— ان جيوشنا لقيت في طريقها موانع عظيمة والى الآن لم نستفد شيئاً كبيراً من مرقبنا السيامي لان ماتوقعناهُ من ورائهِ خيبتهُ حركات الفرقة الطيارة التي نسمع عنها كثيراً ونرى منها قليلاً اليس كذلك ؟

— بلى فان كلامك هذا طبق انباء سكوبلف الاخيرة .

(١) معنى «كاريتا» المجودة او الاحسان

— وقائد هذه الفرقة يكون هذه الليلة في قبضة يدي . فكم يساوي اسره
فاجابها البرنس بتعجب لا مزيد عليه
— قائد الفرقة الطيارة هنا ؟ هذا مستحيل
— تقول هذا لانك غير قادر قوة سحري حق قدرها فضلاً عن مهارتي في المسائل السياسية
— ايجدر تقولين هذا ؟
— نعم فقد رأيت بعد جهد التأمل اننا في حاجة شديدة الى ازالة هذا القائد من طريقنا فهدت له السبيل واعددت الوسائط الفعّالة
— ولكن هذا ليس بسهل عليك
— نعم ولكن النتيجة ستكون وفق المراد . ولا يخفى عليك اني بقوة فراستي اخترت هذا المكان منشأ لمرقبنا السياسي قبل شهر الحرب بثلثة اشهر وما لبثت بعد ذلك ان سعيت في ابلاغ ذلك القائد اني تمكنت بسبب ضعفك — ضعفك انت — من الوقوف على اسرار تتعلق بالمسائل الحربية ثم اطنبت كثيراً ببسالته وشدة اقدامه فاثّر فيه هذا الاطناب تأثيرا بليغاً وارتاح من جرّائه الى الاطلاع على هذه الاسرار من غير معاناة شيء من الاخطار . وقد خيّم بفرقته ليلة امس على مقربة من اسكي زهرة وهو في اشد الاحتياج الى الزاد ويهمه جداً الالمام بحركاتنا . ومن هذا يتضح لك اني بحسن تدبيري اغريته بان ينصب لي شركاً لا بدّ ان آخذه فيه
— وحق مار نيقولا ! ان الشيطانة الجميلة آية في الحذق والذكاء ومنقطعة النظير في السياسة والدهاء . وعندي ان هذا هو الشرك الوحيد الذي به تتمكنين من اصطياده . ولكن هل انت واثقة بقدومه ؟
— اتوقع على يد رسولي الخاص علماً يثبت ما اقول
— وكيف توفقت الى هذا المسعى الحميد ؟
فاطرقت هنيهة ثم اجابته بلهجة شفّت عن مزيد الاسف
— كل ذلك لكي ارتج مسرتك واغنم رضاك وافوز بحريتي . انني عللت نفسي بالمنى والمطامع حتى خيبت تلك الخيبة آمالي وكذبت ما كنت احلمه من الاجتماع بذلك العزيز الغالي . ولست اوجس بعد فقده خوفاً ولا ارهب خطراً ولا ارى امامي ما يقتضي احترازاً او يستوجب حذراً . وسأظل كاليهودي التائه جوّابة آفاق واقطار اقضي حياتي بالرحلات والاسفار هاجرة مضاجع الحب والراحة والسلام ورائدة فيافي القلق والقلق والخصام حتى اجد

الى قضاء وطري سبيلاً او يقضي الله امراً كان مفعولاً

ولست أُبالي ما يكن فليكن وهل يكونُ بهِ موتي فذا منتهى الاملْ

ثم وارت وجهها بين يديها وقد أُرتج من شدة التأثر عليها . وانقطع حديثها بدخول خادم يرفع بيدهِ رقعة الى البرنس سكولوف فتلا فيها اسم المستر رتشرد سافيل وقرينتهِ وقال

— هوذا ضيفانا المنتظران قد حضرا ايها البارونة وهما المستر سافيل ابن الحنرال سافيل المقترن حديثاً بكاترينا مدلتون ومتى اجتمعتِ بهما ورأيتِ ما فيهما من خفة الروح وظرافة المعشر عجبتِ من لياقة اقترانهما وقلتِ " وافق شنٌّ طبقة "

ثم التفت الى الخادم وقال : —

— اخبر المستر سافيل وقرينتهُ ان البرنس سكولوف والبارونة التدورف في انتظار تشريفهما

الفصل الحادي والعشرون

دك سافيل

وبعد ظهر ذلك اليوم جلس المستر سافيل وقرينتهُ في قاعة قصر كرستوف في دوه كوي قرب اسكي زهره عند مضيفيهما البرنس سكولوف والشيطانة الجميلة . وبعد الفراغ من عبارات التعرُّف والتحيات المعتادة قال سكولوف مخاطباً السيدة سافيل

— في اجتماعنا الليلة الاخيرة ايها السيدة بذلتُ جهدي في ان انال منك وعد تشريفك لي في نيس . ولم اكن اتوقع انك تطوفين العالم حتى توفيني الوعد هنا . على ان هذا لا يحول دون استقبالك بالترحيب والتأهيل وايفائك حقكِ من الثناء الجميل

— شكراً للطفك العظيم ايها البرنس واقد قدمنا عليك لاجل تذكيرك الوقت الذي شرتَ اليهِ لملكِ تودُّ ان تلقي دلوك معنا في الدلاء وتشاركنا في ما وقفنا لهُ زهرة عمر المسرة وغرَّة ايام الصفاء

فاجابها البرنس : —

— اني مستعدٌّ لامتثال كل امر منكما واظنني انوب في هذا عن حضرة البارونة ايضاً

— بلا ريب

فقال دك سافيل : —

— لايخفى عليكما انني برّا بعهد الصداقة المكرم واحتراماً لشأن الاخاء المقدس اتيتكما مستقصياً مستنجداً . وقد المع البرنس الى اجتماعه الاخير بقرينتي وليلتئذٍ مثلت فاجعةٌ صادعة انجلت عن تلف احسن رجل في العالم — اعني به القائد او بين غودارد

فقالت الشيطانة الجميلة : —

— غودارد !

ثم انحنت الى الامام وحدقت في وجه دك سافيل بعين ترجمت عما تعجز عن بسطه الاقلام فقالت كتي : —

— لعلك سمعت عن هذه الحادثة ايها البارونة اما انا فقد شهدتها وحقاً انها كانت هائلةً جداً

تحنت البارونة رأسها ولم تفه بكلمة واستأنف سافيل كلامهُ : —

— ولاجل تنزيه ذكر صديقي الميت من اوضار هذه الوصمة وتطهير اسمه من اقذار تلك التهمة وظنتُ نفسي على السعي في اثبات جناية متهميه الاشرار في شر مكيدة وافظع ائتمار . وليس بخافٍ عليكما ان القائد غودارد كان قد اتهم بالخداع في اللعب بمنزل اللورد ارلنفورد

فقالت الشيطانة الجميلة — :

— لكنهُ كان يسهل على القائد غودارد ان يبطل هذه التهمة

فاجاب دك سافيل : —

— وهنا سرُّ المسألة . اذ ظهر بعد الفحص انهُ كان معهُ ورقة ابى اظهارها . واختفاه " روا السباقي " — لانهما كان يلعبان " الايكرتيه " — قوّى جانب التهمة مع ان كل واحدٍ منا تحقق ان اللورد ارلنفورد كان مطلعاً جيداً على تنقية الورق فضلاً عن انفتاح عيون مساعديه في المراقبة والملاحظة وهما الماجور هوبر كرتر وشقيقتهُ السيدة املي دشتون

فقالت الشيطانة الجميلة — :

— املي دشتون ! انها هنا عندنا

— هنا ! الآن ! ارجوكما ان لا تطلعاها على شيء من غرضنا في مجيئنا اليكما

فقال البرنس سكولوف : —

— ساسعى في حراسة الباب لكي لا يدخل احدٌ علينا فجأةً

ثم نهض سائراً نحو الباب وفي اثناء مروره بالشيطانة الجميلة أمرَّ اليها قائلاً " انفذت

امرًا الى كابيودوفتش ان يُعدّ حرسًا يستقبل زائرنا هذه الليلة "

فقالت الشيطانة لدك سافيل : —

— اراك موجهًا تهمة قوية نحو اللورد ارلنفورد

— اني على يقين من كل ما عندي عليهِ — على يقين تام ولكني احتاج الى بينات تحمل غيري على الاقتناع نظيري ولي امل انكِ ايها البارونة تأخذين مع البرنس ليدي وتعضدين مساعي فتغنمان من اهل الانسانية ثناء وشكرًا . ومن الله ثوابًا واجرًا

— لكني لم اسمع قط باللورد ارلنفورد فبماذا افيدك ؟

— نعم ولكني عن تاريخ جون فاين في بطرس برج اطلب افادتكما

فقالت الشيطانة منتفضةً : —

— جون فاين !

قالت الشيطانة هذا ولكن ليس بمزيد التعجب فقط بل بشهقةٍ شديدة روّحت نفسها بانفاس الرجاء وقشعت عنها سحب الغم والكآبة . فوقف سكولوف يرقبها وقد غشيتهُ سحابة قلقٍ كثيفة . ثم سألها سافيل : —

— هل تعرفينهُ ؟

— اعرفهُ ! آه تمامًا ! لانهُ كان سبب فاجعةٍ هائلة وقد كفرها بحياتهِ عن خيانتهِ في كل وادٍ اثرٌ من ثعلبة

— لقد اصبتِ في جملتك الاخيرة واما قولك انهُ كفّر عن خيانتهِ بحياتهِ فليس بصحيح لانّ جون فاين حيٌّ وهو الآن اللورد ارلنفورد ومن المحقق انهُ انتحل هذا اللقب انتحالاً او هذا الرجل الذي جرّ الوبال على القائد غودارد ؟ ففي بطرس برج اسلم رجلاً بريئًا — للموت — رجلاً كان محبوبًا من الجميع ولم يرتكب قط اثمًا — وصرع امرأتهُ وولدها بالضربة نفسها . فحسنًا فعلتما بمجيئكما اليّ لاني استطيع ان افيدكما كل ما انتما في حاجة اليهِ

واذ ذاك دخل خادم واخبرها برجوع كاتم اسرارها فطلبت دخولهُ ولما جاء قدّم اليها رقعة فقرأتها وأشارت اليهِ بالانصراف ثم التفتت الى دك سافيل وقالت : —

— ارجوكما ان تمهلاني الى غد فاطلعكما على جميع التفاصيل المهمة اذ قد عرض لي شغل شاغل حال دون تفرغي لا جابة سؤلكما في الوقت الحاضر فمعذرة منكما

ثم اهابت بالخادم وقالت لهُ : —

— اذهب بالمستر سافيل وقرينتهِ الى مخدعيهما — الى اللقاء ايها الضيفان المكرمان

وبعد خروجها التفتت الى البرنس وقالت : —

— هوذا قائد الفرقة الطيارة على الباب خارج الدار فاتبعني

ثم سارت الى غرفتها الخاصة وسار البرنس في اثرها وكانت هذه الغرفة فسيحة تشرف على دكة او سطح وقد أُنيرت بمصباحين كبيرين القدا القادًا ساطعًا وحولا ظلام الليل نورًا لامعًا

وبعد ما اغلقت البارونة الباب قالت للبرنس : —

— هوذا القائد المعهود هنا وسأدخله من هذا الشباك فعليك ان تجعل رجال كاليودوقش يحيطون بالبيت حتى اذا فرغت من الوقوف على كل مقاصدو ابديت لكم علامة بطلقة من غدارتي هذه

ثم دنت منهُ وسألتهُ بمعنة نظرها فيهِ : —

— قل لي الآن ماذا تعطيني جزاء امر هذا الرجل ؟

فاجابها مكرلوف : —

— لاعطينَّكِ مهما اردتِ فقولي ماذا تبتغين ؟

— اروم منك حياة انسان — اعدامها او العفو عنها — حينما أُريد وكيفما اشاء !

— ايتها البارونة !

— خلِ عنك الآن الدهشة والتعجب وعدني — رحماك — عدني بحق كل مقدَّس عندك

— وتربة اجدادي الكرام لاعطينك ما طلبتهِ على التمام

— اذهب الآن وادعُ لي بنجاح المسعى

ছবি ১৩: মাতৃমূর্তি

ছবি ১৪: মাতৃমূর্তি